

الفصل الثالث

التحدي الإعجازي للإسلام
منهجياً في هذا العصر

التحدى الإعجازى للإسلام

منهجياً في هذا العصر

والتحدى الإعجازى للإسلام في هذا العصر إلى حد يمكن استئناس المسيرة المنهجية في طرحه ؟ ما هي الحدود والإمكانات ؟ إن خير ما نطلع منه لعرض هذا الموضوع ونستشير به كميّار هو قول الحق سبحانه « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » (١) . فمن لديه كتاب منير أو هدى من ربه ليس في حاجة لمن يتجاوز به التحدى . فهو قد تجاوزه بنور كتاب الإيمان المنير وهدى الله الذي امتلأ به قلبه . وبقي الجدل في حضور العلم أو المجادلة في غيبته . المجادلة بغير علم غير مطروحة كالمجادلة في غيبته ، ومن باب أولى دون هدى أو كتاب منير . لأن هذا جدال الضلال . مصداقاً لقول الحق سبحانه « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله » (٢) ... قد يكون شيطاناً يوسوس له في صدره المتعلق بالدنيا ، والمتغافل عن الآخرة ، أو شيطان من الإنس يلقي عليه بأطروحات مغشوشة ، منمقة ومفتعلة يستهويه بها بعد أن ضل هو . ويريد أن يوسّع به موكب ودائرة الضالين .

فهذا الذي يجادل دون إحترام لأبسط الأسس العلمية . بل ويتنكر لها مشيئاً أو مشيئناً . جاهلاً أو متجاهلاً لخصائص

(١) الحج ٣ ، ٤ .

(١) الحج : ٨ .

الحوار والمواجهة الموضوعية ليس هدفنا من هذا العرض إقناعه ، بل إن الله سبحانه وتعالى طلب منا الإعراض عنه ، لأنه زاع وأضاع زمنه ويبحث عن إضاعة أزمنة الآخرين بعد أن زين له الشيطان حب الدنيا وأزان له أفعاله فيها . يقول الحق سبحانه « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم » . (١) مبلغ العلم الذى يريد به إشباع شهواته ونزواته والتلبيى بحياته ، دون فكر أو تفكير أو تسامى مثله كمثل أى حيوان يبحث غرائزياً عن كل إشباع ، يفترس أقرب الحيوانات إليه ولو كانت أمه التى أرضعته ، فهذا الحيوان المقنع أو المستتر فى هيئة إنسان ، التحدى كما أشرنا سلفاً غير وارد بالنسبة له أيضاً . بل لا نملك إلا التأسى عليه والحزن على دونية المصير الذى ارتضاه لنفسه . . .

بقى الحوار بهدف التحدى الإعجازى فى حضور العلم المستنير المشرق ، إن كان هذا التحدى الإعجازى للإسلام انتصر فى عصره الأول من خلال معركة المواجهة المطروحة لعلم العصر آنذاك ، ونعنى البيان وإعجازه كمعرفة رائدة كريادة المعرفة التكنولوجية فى عصرنا اليوم . المعرفة البيانية عند العرب تجاوزها القرآن فى فترة النبوة وفى كل العصور بفضل ما جاء به من بيان خارق معجز خالد . ثم جاءت مرحلة تحدى آخر ممتلا فى العقلانية

والبرهان الفلسفى بعد أن تعامل العرب مع الفكر الإغريقى .
وواجه الإسلام وحاوّر بعقول نيرة أصولية سلفية كانت تحتكم
للشرع والنص ولا تقبل التأويل أم تنتمى لدراية العقل مع أولوية
النص إنطلاقاً من عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) حتى مدرسة
الكوفة مع أبى حنيفة النعمان وما حوله ، أم كانت كندية أم
أشعرية أم ماتريدية ، مطعمة بالاعترال . أم معزلة . أم إخوان
النصفا بما فى ذلك فلاسفة التعامل الإغريقى معه أو عليه من الفارابى
لابن سينا إلى الغزالى والرازى وابن رشد . . .

مواجهات الكلاميين بجدالهم البناء ، والفلاسفة ببرهانهم
الناصع ، إلى جانب أهل الخطاب وقناعتهم العاطفية الروحية الصوفية .
لم يهزم الإسلام المتحدى المخاور بمبادئه الرصينة الخالدة
وعقول رجاله ، بل عبر التاريخ قادراً معجزاً ومنتصراً رغم كل
الطعنات المقنعة ، ومواكب الكيد ، ودس الدخلاء . وارتفع
عدد المؤمنين المستضعفين من مئات وآلاف فى العصر النبوى
ليصبح ملايين تقرب من المليار منتشرة فى كل بقاع الأرض
تواجه ظلم الإنسان ، وحيل المزيفين . ومضاربة سماسة التشكيك ،
من حاولوا تجسيد حال الإسلام فى حال المسلمين ، وفشلت
المكائد وعريت كل الحيل وكشفت كل أنواع المضاربات
ووصل الإسلام إلينا عملاقاً يضمه جراحه وجراح أبنائه ومعتنقيه .
وواجه سيف الغرب الصليبي ممثلاً فى الاستعمار ، وتقبل جسده

من جديد كل الضربات والطعنات بعد مآسى العصور الوسيطة
وضياع الأندلس . وقد اختلفت مواكب الاستعمار فى الكثير .
ولكنها كانت ضمناً متفتحة فيما بينها على خنقه وقبره . . .

وتجاوز الإسلام سيف الاستعمار الصليبي والاستغلالى ،
ليواجه فى القرن العشرين عقله الحضارى الغربى المدعم بالأسس
العلمية والمعرفة التكنولوجية والإنجاز الصناعى الخلاق . ولم تتوقف
بالتالى مواكب التحدى . . .

فبعد التحدى البيانى . والتحدى العقلانى جاء التحدى الأكبر
مثلاً فى مآلية البيان والعقلانية الفلسفية النشطة ليتجسد فى العلم المرتكز
على قدرة المنهج والمدعم بالتجريب والملاحظة . وهذا هو الإسلام
وقد اقربنا من نهاية القرن العشرين وبعد أن دخل فى قرنه الخامس
عشر يستنفر قدرات عقول أبنائه لا ليجد مهرباً من التحدى
يسلكه . وإنما ليوافقه وليتجاوزه كما تجاوزه من قبل بإعجازه .
ولكن كيف ؟ هذا ما سوف نحاول طرحه لا من منطلق الفضول
أو المجازفة المتهورة . وإنما من قناعة التكوين الصارم فى العلوم
الوضعية وفى الإسلاميات على حد سواء . وهذا ما يجعلنا ومنذ
البداية نخط الحدود بوضوح . وهى أننا نستبعد الأطروحات
المغشوشة أو المتعجلة وهى أطروحات ما نسميها « بالإحلال أو
التبرير » والتى تسعى إلى إحلال العلم محل الدين أو العكس - إحلال
الدين محل العلم - أو تبرير العلم بالدين أو تبرير الدين بالعلم الدنيوى

النسبي والمحدود دون وعى بتسامي الدين في كماله وشموله من منطلقه
وعبر مسيرته وغائته الخالدة ، عن العلم بجزيئاته ومرحليته بين
التخطف والتصويب ، فإن كان ولا بد من تبرير فالعلم هو الذي
يبحث عن سند وتبرير له من جانب الدين ليميز بين علم بناء للإنسانية
وعلم مدمرها . . .

إنما الذي نسعى إليه هو المواجهة والحوار بهدف التحدى
مواجهة ما حققه العلم بعد أربعة عشر قرناً من ظهور الإسلام
لنكتشف معه من خلال إكتشافاته وخطواته المتجددة هل فيها
ما يخالف نص القرآن ؟ هل استطاعت مسيرة العلم بعد أربعة
عشر قرناً أن تسجل ولو إصابة واحدة تنال من مرمى قرآنا
الخالد . وهو الذي نحتكم به كما كان شأننا دائماً إلى جانب الصحيح
من الأحاديث الشريفة . ونقول الصحيح من الحديث لأنه لم ينل
ضرب من التخصص في الحيلة والحذر والدقة والاجتهاد والحرص
مثل ما نال علم الحديث ، فلقد سهر رجالاته حباً في رسول الله عليه
الصلاة والسلام . وتفانياً في حفظ أحاديثه لينقلوا إلينا بكل أمانة هذا
التراث الخالد . أما موجة التشكيك التي يطرحها البعض الآن
حول صحة الحديث فهي تدخل بدورها في مسلسل التحدى . . .

التحدى الإعجازي لتدعيم الصلاحية نظرحه إذن في هذا
الإطار الواضح مستبعدين بالتالى للشطحات الجائنية والمفتعلة
باسم الإحلال أو التبرير . ملتزمين بواقع المواجهة بين علوم تخطو

خطوات سريعة ومكثفة ومتجددة مرتكزة على التكنولوجيا
ومعتددة على المنهج . متبنية للتجريب والملاحظة ومتخذة من
الصناعة وسياة للتطبيق وبين إسلام لا يتجاهل التعامل ولا يعومه
ولا يتهيب التطلعات العلمية . وإنما يبحث عن ذلك محاوراً متحدياً
ومتجاوزاً بالإعجاز . .

لقد أنجزت العلوم إنجازات عملاقة في استئناس الظواهر
واكتشاف قوانينها بما في ذلك الإنسان كجسد طبيعي بشري .
فلم يعد يقرأ كنص ويذكر كمجرد تسمية تجريدية ، بل تجرى
الآن عليه التجارب والعمليات الجراحية بما في ذلك القلب والمخ .
فهل استطاعت هذه الإنجازات أن تكشف لنا ولو خطأ واحداً
ورد في القرآن أو في الأحاديث الصحيحة للرسول عليه السلام ،
وبعد أربعة عشر قرناً من المعرفة . مع أن نصف قرن يكفي
لتجاوز معرفة بأخرى أقدر وأنصح نتيجة للتطور العمى ؟

تعرض القرآن لظواهر الطبيعة والإنسان ودعا إلى التمعن فيها .
يقول الحق سبحانه « وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم ،
أفلا تبصرون » (١) بل أعطى لنا القرآن الكريم صورة رائعة
لتسلسل خلق الإنسان ، اكتشفت التجارب في المعامل والمخابر
جانباً فيه يدعم رؤية الإسلام . وستأتي تجارب أخرى في مستقبل
العصور لتضيف ما يؤكد صدق قول الحق سبحانه :

(١) الذاريات : ٢٠ ، ٢١

« فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم . ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » (١)

إن مسيرة علوم الطبيعة والفلك والفضاء بصفة عامة في كل يوم تضيف برهاناً لإعجاز القرآن لا عليه . هذا القرآن الذي استمع إليه إنسان مكة والمدينة فآمن به وكبراً ثم يستمع إليه ابن عصر الفضاء في القرن العشرين فلا يملك إلا الخشوع والتكبير بدوره .

ومع هذا كان في إمكاننا أن نصفي هذا الحوار وهذه المواجهة بطريقة موجزة تحت شعار أرضية الاختصاص والدفع بها . باعتبار أن الرسالة المحمدية الخالدة تواجه بالعلوم الإنسانية لا علوم الطبيعة . لأن القرآن لم يحدد سورة بسورة : في الكيديات وأخرى في الفيزياء وثالثة في الفضاء أو الفيزيولوجيا حتى تقارن هذه السور بهذه العلوم . ولكن القرآن أسمى من ذلك وأشمل وأخلد ، فهو كتاب لهداية الإنسان في كل زمان ومكان . يوضح له السلوك المستقيم وما ينتظره من مصير . فهو يواجه بالعلوم التي تزعم دراسة الإنسان وسلوكه بهدف إنارة الطريق له والمصير . وفي صدارتها العلوم الرئيسية الثلاثة : الأنثروبولوجيا المتمركزة حول تراث الإنسان ونتاجه الاجتماعي والثقافي ، والسوسيولوجيا المختصة بدراسته في

بيئته الأسرية والمجتمعية وعلاقاته وبنياته . والسيكولوجيا التي
تغوص في نفسيته وأغوارها شعورياً ولا شعورياً كمؤثر ومتأثر ،
إلى جانب علوم بيئية (أى بين بين) أخرى الدارسة لنموه
الديموغرافى والاقتصادى ومناخه وتشريعہ وتسييسه وتاريخه وتفلسفه .

إن كانت العلوم البيئية الأخيرة هذه فى غالبيتها (اللهم إلا ماندر
كالإقتصاد والسياسة) هى علوم وصفية أساساً أو تسلسلية
استرسالية كالتاريخ لم تحاول تجاوز الوصف أو الاسترسال إلى
التعليل والتخريج وطرح إشكاليات الإنسان، وإنما تصف إنعكاساته
فى وسطه وبيئته وتاريخه وعلاقاته وثروته وقواعد سلوكه . تبقى
العلوم الرئيسية الثلاثة السوسيولوجيا (علم الاجتماع) والسيكولوجيا
(علم النفس) والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) كعلوم لم تكتف بمجرد
الوصف والاسترسال عندهما، وإنما جاءت أيضاً لتعطى تعليلاً لرسالة
الإنسان . هذه الرسالة — على حد زعمهم — من الإنسان تبدأ وبه
تنتهى مرتكزة على « فلسفة الأرض » فى مواجهة حوار السماء
« فلسفة وضعية » فى مواجهه التجريد الغيبى والميتافيزيقيا . . .

إن هذه العلوم الثلاثة ومن خلفها فى بعض المباحث أيديولوجيات
وفلسفات مقنعة . تزعم أنها جاءت لتوقف إطار التغميض
للإنسان وتحد من إستلابه بالأساطير والخرافات والأوهام القديمة
والرسيطة المجسدة فى الأديان على اختلاف نزعاتها . . .

غير أننا لن نوسع ونهمش إطار المواجهة بإدخال كل الأديان
بما فى ذلك المنقرضة والاشتراكية والنوعية ، والمرحلية السامرية

كالنصارى واليهودية ، وإنما سوف نركز على الإسلام كنموذج
أسمى باعتبار أنه الدين الوحيد الكامل الشامل لرسالة إبراهيم ،
وموسى ، وعيسى ، وغيرهم من الأنبياء والرسل . ١٠ قصصنا
نبأه أو لم يقص (عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام) أكمله
محمد خاتم الأنبياء والمرسلين (صلوات الله وسلامه عليه)
إن الدين عند الله الإسلام ومصدقاً للآية الكريمة « آمن الرسول
بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه
ورسوله لا نفرق بين أحد من رسوله » (١) . . . هل تستطيع هذه
العلوم الثلاثة أن تكتشف -- باسم تعرية التغميض ورفع الاستلاب --
في الإسلام ما يمكن أن يؤخذ عليه . . .

سوف نحاول من خلال إطار التخصص والاختصاص لا
الفضول والمجازفة أن نواجه إختيارات وإنجازات هذه العلوم
الثلاثة بما جاء في رسالة محمد (عليه السلام) ولنبدأ بالسوسيولوجيا
(علم الاجتماع) ثم السيكلوجيا (علم النفس) ثم ننتهي
بالأنثربولوجيا (علم الإنسان) . . . العلوم الأساسية في تحدى الدين .
السوسيولوجيا كعلم وضعى يزعم الشروح الشاملة للظواهر
الاجتماعية منذ تأسيسه في العصر الحديث (بعد اجتهادات المبدعين
البناء وعلى رأسهم ابن خلدون ورسو ومنتسكيه وغيرهم) مع
سنان سيدون . وسبنسر . وأوجست كونت . وكارل ماركس .

ثم امتداداته وتطوره عبر الحضارة الغربية بشقيها اللبرالى والماركسى وانعكاسات ذلك على عالمنا الإسلامى العربى المغلف بالعالم الثالث ، إن كان موقف ابن خلدون وهو القاضى المسلم لا يحتاج لمواجهة وموقف روسو ومنتسكيه وغيرهما من الممهدين وحتى موقف سان سيون لا يحتاج إلى الكثير من التفصيل باعتبار أن هؤلاء كل منهم قد أقر الدين ولكن بطريقته الخاصة بما فى ذلك سان سيمون الذى أكد قبيل وفاته بل وفى لحظات إحتضاره أنه « لا يهدف إلى إحلال العلم محل الدين وإنما المهدف يكمن فى التوفيق والتعاون بين العلم والدين لأن كل منهما لازم للإنسان وإسعاده » (راجع مؤلفنا بالفرنسية فى مجلدين عن أصول السوسولوجيات الاشتراكية والدولية وأثر سان سيمون) . . .

وكذلك موقف سبنسر صاحب نظرية التطور . فبعد تحديه الصارم فى مؤلفاته الأولى عن «القوانين الأساسية للكون، وأصول علم الحياة . والسيكولوجيا والسوسولوجيا » بل تعتبر دراسته الواسعة عن السوسولوجيا الوصفية فى عدة مجلدات. وأصول السوسولوجيا فى عدة مجلدات أيضاً. نقداً معمقاً لنشأة الأديان المنقرضة ، وتطور الأديان الكبرى ومع هذا فنفس سبنسر يؤكد فى مؤلفاته الأخيرة « أن العلم لا يمكن أن يزعم أنه كشف الغموض الذى حاول الدين أن يتكلم باسمه بل ما زالت المعرفة — كل المعرفة — نسبية ، وإن الدين فى أرضيته والعلم فى أرضيته كل يمكنه متصالحاً مع الآخر أن يسهم فى تطور البشرية وارتقاؤها . . .

هذا التراجع نلمسه أيضاً عند أوجست كونت الذى ألصقت « الفلسفة الوضعية » فى الفترة الحديثة والمعاصرة باسمه (مع أن الواضع لها أستاذه سان سيمون) فبعد مؤلفات كونت فى سن الفتوة الفكرية والتى تحمل عنوان محاضرات فى الفلسفة الوضعية وزعمه إكتشاف قوانين التقدم عبر ما أسماه « النظرية العامة للتقدم » أو الحركية الاجتماعية المشكلة لقانون الأحوال الثلاثة لديناميكية الفكر والذكاء الإنسانى : الحالة اللاهوتية بفتراتها الثلاث -- فثنية آلت إلى -- إشترابية آلت بدورها إلى - وحدانية ثم الحالة الثانية الميتافيزيقية المترتبة بالضرورة والالتزام على الحالة السابقة بما احتوته من مغالاة فى التجريد والغيبية لتأتى صيرورة الذكاء الإنسانى المجرب والملاحظ فى الحالة الثالثة : الحالة الوضعية . حالة المال للفكر الإنسانى الناصح حيث فلسفته منه وإليه . فلسفة الأرض الملموسة فى مواجهه فلسفة السماء المجردة والغيبية . ومع فلسفة الأرض وفلسفة الإنسان تسود السوسيولوجيا كعلم شامل يحدد رسالة الإنسان ويقود مصير الإنسانية . . .

وكما عاد سبنسر عاد أوجست كونت فى نهاية حياته ليعلن وفاءه لما أطلق عليه « الكنيسة الكونية » الوضعية يعبد فيها الكائن الأعظم تجديداً للإنسانية . بل ذهب بصراحة العلماء الزهاء يقلب فى الأديان السماوية باحثاً عن الحقيقة ليكتشف فى نهاية المطاف أن الإسلام كدين وحدانى يتدشنى مع الحالة الوضعية لخلوه من التغميض والعبث . وتميزه بالعملية وببساطة شعائره . . .

بقى كارل ماركس كأحد عمداء تأسيس السوسيولوجيا ،
هذا العلم الذى ضارب عليه وباسمه الكثير ، وما زال البعض يضارب
به حتى الآن ليخلف ، الدين فى ريادة للمجتمعات الإنسانية
وقيادتها نحو التقدم .

إن موقف كارل ماركس من الدين فى مراحل شبابه وتأثره
بالييسار الهيجلى خصوصاً : فيو ، باخ ، وجانز ، وموزيس ،
وروجيه ، وبوير وغيرهم معروف من خلال مؤلفه « الأيديولوجيا
الألمانية » فقد طرح الدين كأيديولوجيا إستلابية متصدرة مرتبطة
عضوياً بالبنية الفوقية للمجتمع أسست وزكت الدور الاستغلالى
لهذه البنية بالتخدير والتنويم الغيبى والاعتراب . . .

ولكن الذى يجهله غير المتخصصين فى الماركسولوجيا
(علم الماركسية) والذين لم تتح لهم فرصة متابعة مسيرة ماركس
الفكرية بدقة من البداية إلى النهاية ، أن كارل ماركس لم يسلم من
الارتداد كغيره من عمالقة الفكر الإنسانى فى نهاية حياته ، حيث
مراسلاته مع « البابا » ومع زعيم ثورة الفلاحين فى ألمانيا آنذاك
« منزيل » وكذا موقفه من البلانكيين ومظاهراتهم المعادية للدين ...
كل ذلك يؤكد تراجع خصوصاً حينما صرح بوضوح فى نهاية
حياته أنه « لم يك أبداً الهائف بموت الإله الذى ما تنكر له — على حد
زعمه — وإنما كان يسعى ويهتف دائماً بتحرير الإنسان ، فالمشكلة ليست
فى إنكار الإله ولكن فى تحرير الإنسان » . . . (راجع للتفصيل
دراستنا عن الماركسية والدين) .

لقد عاد ماركس أو بعبارة أكثر وضوحاً ارتد ماركس عن ماركسية شبابه في شيخوخته ، إنها عودة مقنعة كغيره من العائدين ولكنها جديرة بالإشارة خصوصاً بالنسبة لمن يرتدون عبادة الماركسية بهدف النيل من الدين والتشكيك فيه . لقد تراجع الكاهن الأعظم للمعبد فمن الأولى أن يتراجع مريدوه وفاءً له وفكره .

وهكذا السوسيولوجيا (علم الاجتماع) التي زعمت خلافة الدين في قيادة الإنسانية تراجعت من خلال مؤسسيها من يعمق الرؤية والاستيعاب ولم يقف عند القشور ويتبنى المضاربات والمجازفات والتهور عملاً بسلوك (خالف تعرف) كأمثال هؤلاء الذين ما انفكوا يبيعون بعض الألفاظ والمسميات المنمقة التي تتميز بالانفعال . وتتم عن التصنع في الكلم بهدف سمسرة الغش وتعميم التزييف الفكري ، نظراً لغيبة التكوين المتعمق لديهم . وفاقده الشيء لا يعطيه ، ونعني بذلك هذا الاتجاه السوسيولوجي السطحي في العالم الثالث الذي لم يعرف من السوسيولوجيا إلا العناوين يتقياً من خلالها معاناة قصوره وانعكاسات عقده ومشاكله الشخصية .

لقد تطورت السوسيولوجيا مع المجتهدين بعد المؤسسين وحتى الاتجاهات الرئيسية المعاصرة ، سواء لدى الإنجلوسكسون أو الفرنسيين أو الألمان (باستثناء الاتجاه السوفييتي الذي بعد رفضه للسوسيولوجيا مع ستالين واعتبارها علم البرجوازية الصغيرة عاد في الستينات ليركب في موكبها بعد اكتشافه لعطائها وقدرتها

وليتخذ منها وسيلة للضاربات والتفنيد لحاجة في نفس يتقرب (وتعددت التيارات داخل هذه الاتجاهات بين تيارات ليبرالية تفهيدية (ماكس فيبر) أو تيارات مدعومة للدين مثل ما يعرف بالسوسيولوجية الرعاة . وكيف أن دراسة المجتمع تؤكد صلاحية الدين ومشروعيتها ، أو تيارات ماركسية تبنت الجانب العملي في السوسيولوجيا في أرضها لتزيد معرفة بقاعدة المجتمع ومناحيه (كما هو الحال الآن في الاتحاد السوفيتي) ولكن هذه التيارات الغربية بشقيها الليبرالي والماركسي رغم تعارضها في الاختيارات التمت ضدنياً فيما تصدره لعالمنا الثالث من أطروحات مغلوطة وسطحية بهدف تعميم الرؤية لنا من تشكيك في ثرائنا وأصالته وحقيقة عطائه التاريخي ومن أساليب خطابية متشنجة تحمل راية الاعتراض والتمرد والتدمير . ولكن على من ؟ ومن أجل من ؟ الاعتراض على انذات والتمرد على تاريخ معاناتها وتدمير أرضيتها ماذا تبقى إذن ؟ ؟ .

إن السوسيولوجيا كعلم اجتماع وضعي رغم أطروحاته المبدئية المتحفظة على الدين في شكل محتشم بل ومرتد في أغلب الأحيان ما استطاعت - ولئن تستطيع - أن تصبح بديلاً للدين أو تبني مجدها على حسابه . بل رأينا قادة تأسيسها ومن بعدهم المطرورين لها يعودون بها إلى التصالح مهزومين أو مقتنعين بصحة وصلاحية الدين والإله . وصدق الحق سبحانه « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما

لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » (١) . .
وما تبقى من السوسولوجيا الرافضة المتحدية في البداية إلا زمرة من
المغرورين والمتكبرين للحق والمتكبرين عليه ممن صرفوا عن
آيات الله كما قال الحق « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في
الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها » (٢) . . .



والسيكولوجيا (علم النفس) بدورها كعلم حديث اعتلى بعض
مؤسسيه موجة الإنكار بل غالى جانب منهم إلى حد التبجح
المرضى حينما وصف الأنبياء بأنهم عصاويون وكما يقول المثل
: رميتي بدائها وانسلت . فما العصاويون إلا هم كبرت كلمة
تخرج من أفواههم . لقد قادهم ظنهم المخلوع والمخادع إلى
تبنى أطروحات فورية سهلة وجاهزة . وصدق عليهم التحدى
« هل عندكم من علم فتخرجوه لنا . إن تتبعون إلا الظن » (٣) . .

فلئن كانت اتجاهات نفسية كمثال « كارل جوستاف يونج »
تعرضت للسيكولوجيا وموقفها من الدين (مؤلفه المنشور سنة
١٩٣٩) بهدف خلق أرضية تفهيمية فاتجاهات أخرى (مثل
فرويد) ناصبت الدين ضمنيّاً القطيعة والعداء . وراهنّت من
خلال التحليل النفسى والبيدو الجنسى . وتفسير الأحلام

(٢) الأعراف : ١٤٦ .

(١) الدخان : ٣٨ : ٣٩

(٣) الأنعام : ١٤٨ .

مراهنات أكدت لنا في النهاية صدق معاناة واضعوها لا معاناة الدين . وبعد فشل العديد من الأطروحات حاول البعض الإنقاذ أخيراً عن طريق ربط مصير الفرويدية بالماركسية وخلق أرضية مشتركة بينهما . إن مسلسل الانتحار لديهم والذي أكد لنا حقيقة هذه المعاناة . ودون أن نعرض بأسماء المتأذين نفسياً بل والمنتحرين من المحللين النفسيين (حتى لا يفهم أن ذلك من باب التشفي) يجعلنا نذهب إلى حد القول — وبلا مجازفة — أن المجتمعات البشرية وفي كل عصورها التاريخية ما عرفت مثل ما تعرفه الآن من انتشار للمعاناة النفسية والقلق والاضطرابات العصبية نتيجة ليس فقط لتلوث البيئة وتزيف العلاقات الإنسانية وإنما لتلوث الأفكار والقيم الروحية والمبادئ الأخلاقية والتشكيك في صلاحية كل شيء من أجل لا شيء كما أكد ذلك كبار الرواد المعاصرين من علماء النفس الزهاء . . .

إن السيكولوجيا (علم النفس) كعلم يحارل تفهم الظواهر النفسية من خلال إنعكاسات البيئة الأسرية والمجتمعية، وإنعكاسات البنية العضوية والفيزيولوجية لأجهزة الجسد على حالته النفسية، ومدى تكيفه مع ما يحيط به منذ المراحل الأولى للنمو النفسي عند الطفل حتى النضوج والشباب والشيخوخة ، هو علم جدير بالاهتمام، بل يمكنه أن يسهم في مسيرة الحضارة إيجابياً كمصحح لها على مستوى الإنسان ... ولكن حينما اتخذ البعض منه — ممن ارتدوا عباءته — وسيلة لبث السموم والأفكار المغرضة ضد الرسل والأنبياء

دعاة الصلاح الإنسانى وارتقائه الحق إلى أرفع درجات السمو .
وذلك لتصفية حسابات شخصية وربما مرضية مع الدين ، حادوا
به عن سبيله وهدفه . وأقحموه فى عراك مدمر وسّع من دائرة
التشكيك فى كل القيم والأسس الضامنة لتوازن الإنسان . فلا
يمكن لإنسان متنكر لحقيقة تركيبه المزدوج —روحى ومادى — أن
يحل مشكلة ازدواجيته لحساب ماديته إلا بالانتحار النفسى والعراء
فى داخل ذاته وتحوله إلى هيكل أصم ، آلى ، شرس ، جنسى
باحث عن الإشباع الغرائزى بشكل صريح أو مقنع ، مقوض لكل
إنسانية فى الإنسان . . .

رمع هذا فهناك جانب لا يستهان به من علماء النفس العمالقة
عرف حقيقة الدور التفهمى لهذا العلم وحاولوا — وما زالوا
يحاولون — من خلاله ، وتحت رايته تدعيم أرضية المصالحة فى داخل
الإنسان بين روحانيته وماديته ليعم بعد ذلك التصالح على مستوى
البشرية بدلا من التدمير والانتحار ، والبناء بدلا من التخريب
والانهيار . . . وإلا لنا الحق فى أن نتساءل هل استطاعت
العيادات النفسية المنتشرة فى الكون أن تعيد لمريض
افتقد ترازنه الروحى والمادى وأصبح يعانى من مشاكل افتعلها
بتطلعاته المادية الجشعة . صفاء النفس وتعادلها ؟ أم زادته تأزماً
حينما رقعته بكل مصطنع وملفق من التركيبات الكيماوية الملونة
لكيانه العصبى العضوى أو الوظيئى : لا يهدأ إلا بمخدر . ولا ينام

إلا بمنوم ولا يقف إلا بمتموى . . . أين نحن به من هذا الإنسان البسيط في باديته بعد أن حرم واستضعف من أخيه الإنسان وقفلت أمامه أبسط أبواب الرزق . وأصبح يواجه كل مشاكل الحياة وضرورياتها الحقيقية ، لا شهواتها أوزيناتها المفتعلة . بقوة الإيمان والثقة في الله شامخاً ينطق باسم ربه فيعيد إليه ثباته ، ويدعم صبره ليواجه كل الصعوبات بابتسامة عميقة . وقلب صاف ونوم هادئ . وحركة كلها جلد وقوة وإصرار . مصداقاً لقول الحق : « لقد خلقنا الإنسان في كبد » (١)

إنه الفرق الناصع والفارق الشاسع بين أتباع الكتاب الإلهي الذي لا يأتيه الباطل . وبين أتباع الكتب المغشوشة التي وضعها بعض المرضى المتقنعين من أبناء الإنسان . لقد تعرض قرآننا الكريم للعديد من الظواهر النفسية وجعل الإيمان هو العلاج الأسمى « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » (٢) فهل استطاعت السيكولوجية المتنكرة — لا السيكولوجية المتفهمة ، ونحن من دعائها ومن المدافعين بل والمتحمسين لها — أن تعطي بديلاً ؟ إننا نتحدى ، لقد قرأنا كتبكم وها هو كتابنا فاقرأوه . . .

لم تستطع سيكولوجية المشككين العابثين بقداسة النبوة

أن تسجل ولو إصابة واحدة ضد ديننا الخفيف الداعي للتعاذل والتوازن والوسطية . بل اكتفت برفع شعارات التقطعية وصياح الأزيمة والتأزم والاستلاب . والإحباط . وتعديم الرجس وكانوا أول ضحايا هذه الشعارات والصيحات فعانوا وما زالوا من التأزم والاستلاب والإحباط . بل والانتحار . وبقى الدين بقوله الحق وبكلمته النبوية الرائدة الصادقة خير مرشد ودليل وحكم ليعطى لنا من خلال هذه الآية الكريمة مبدءاً نفسياً خالداً جاعلاً من الإيمان الشارح للصدر المعيار لكل تعادل نفسى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام (الدين الشامل الكامل مع محمد عليه السلام) . ومن يرد أن يضلّه (يتروكاً لنفسه بعد أن أدار ظهره للرسالة) يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء . كذلك يجعل الله الرجس (قازورات التلوث فى مختلف صورته وأشكاله) على الذين لا يؤمنون » (١) . . .



والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) إجتماعية كانت أم ثقافية وهى فى مطلعها بنت ركناً من أركانها على الخوض فى الدين . ماذا قدمت باعتبارها المتصدى والمتحدى الرئيسى المضمر لصحة الوحي الإلهى ورسالة السماء . . ؟ . . فقد انطلقت من ربطها للدين الإلهى بأرضية الأديان البدائية المنقرضة والى ربطت بدورها بظواهر الطوطمية والإحيائية والغمشية وظواهر السحر والمنا . . .

(١) الأنعام : ١٢٥ .

من ديركايم . وموس . وليفي برول . وهوبرت . وهوفلان .
وكودرنجتون . وليمان . ومالينفسكى . وفريزر . وآنيه... وغيرهم
من كبار علماء الأنثروبولوجيا والباحثين فيها . . .

لقد حاولت الديركامية مثلة في « ديركايم » أساساً وماتلا
ذلك من موس . وليفي برول . وهوبرت ، وهوفلان . . .
أن تطرح مع ديركايم في الأشكال المبدئية للحياة الدينية من
خلال النسق الطوطمي نشأة الأديان ودراستها في أشكالها الأولى
المبسطة دون التزام بصحة أو عدم صحة الدين . فما الدين عند
ديركايم إلا إسقاط سامي للحياة الدنيوية . وذهب « ليفي برول »
إلى حد الزعم أنه من الصعب عزل الدين عن السحر لأنهما
ينتميان إلى جوهر واحد غطى فترة ما قبل الدينية بمر حلزنا الكبرى .
بينما يرى « موس » . و « هوبرت » و « هوفلان » أن هناك
إمكانية للتمييز بين الدين والسحر . فالدين له قداسة والتزام
جماعي مشترك بعكس السحر . وأن الأصل لكل منهما انطلق
من « المانا » . فالجانب المقدس من « المانا » يمثل أصل الدين
والجانب غير المقدس يمثل أصل السحر . غير أن « كودرنجتون »
وهو من أكثر الباحثين إجتهداً في ظاهرة « المانا » حددها على
أنها قوة خفية كامنة في الكائنات والأشياء وليست قوة علوية
كما هو الحال في الدين . وتوسع « ليمان » بدوره في دراسة « المانا »
من « مانا » تؤثر في الإنسان و « مانا » تؤثر في حيوان والطيور

والأشياء ، و « مانا » خاصة بالإله والأرواح ، بينما « مالفينسكى »
 ركز على أهمية دور السحر فى المجتمعات البدائية . أما « فريزر »
 فقد قال بأن السحر هياً للدين . وهر قوى العلاقة به ، بل ذهب
 إلى حد الزعم بأن الدين خرج من السحر كما خرج من الدين العلم
 والفن . بمعنى أخطاء الساحر وعدم تجاوب الطبيعة معه . مهذا
 للتسليم بوجود قوة أخرى متجاوزة وعالية تغطى هذا القصور ،
 ومن ثم كانت الأديان مرحلة تالية للسحر انطبعت بالتعقد فى
 الطقوس والمزاولة . ويعارض « آليه » هذا التفسير فهو يرى
 على العكس السحر لاحق للدين نشأ عنه بعد أن أفسد بعض عناصره
 وأن الساحر مبنى فاشل أو مغشوش .

من كل هذا نرى عدم الاتفاق بل والتعارض بين مختلف
 آراء علماء الأنثربولوجيا فى هذه القضية ، حتى بين أتباع المدرسة
 الواحدة كما هو الحال عند الديركايميين . ولعل الالتباس
 الرئيسى الذى وقع فيه هؤلاء الباحثون . أو أرادوه البعض حقيقة
 نهائية يضارب عليها هو غموض تقنينهم لأديان البدائيين وعقائدهم
 المنقرضة ومحاولة افتعال استمرارية بين هذه المعتقدات المنقرضة
 والأديان السماوية الكبرى والقياس عليها . مع أن الأديان الوحدانية
 السماوية اتخذت أساساً كهدف لها تأكيد القطيعة الكاملة بين
 المعتقدات الوثنية وبينها . وحثت على القضاء عليها ، بل دعت
 إلى نفس القطيعة مع مرحلة أكثر تطوراً فى عقائدها . وهى

مرحلة تعدد الإله أو الإشراف . وحث أيضاً للتقضاء عليها ، فكيف يمكن التسليم بهذه الاستمرارية التي لا وجود لها إلا في عقول صانعيها من الباحثين عن الأضاليل . وترتفع واقع التاريخ بخلق تكامل وهمي بين مرحلتين في الواقع متباينتين تماماً . مرحلة الوثنية والإشراف ومرحلة الوحدانية ، بل جاءت الأخيرة هادية بنور السماء إلى نبد الأولى والتخلي عنها ، وبشكل واضح وكامل مع الإسلام باعتباره الدين الوحداني الشامل لكل الأنبياء والرسول وانتهى بمحمد (عليه السلام) كخاتم للأنبياء والمرسلين .

وحث علاقة السحر بالدين ، أي دين يقصد ؟ إن كان المقصود الأديان البدائية المنقرضة فالقضية غير مطروحة بالنسبة لنا في الدين السماوي الوحداني باعتبار أن موقف الدين الإسلامي الدين الوحداني الشامل الكامل ، راضح كل الموضح سره فيما يعنى التعامل مع الطبيعة وما وراء الطبيعة . أو من حيث المعتقدات والشعائر . فالدين الوحداني أمام الطبيعة في مواجهتها يحتكم لإرادة الله خالق الكون . بينما السحر يلغى كل تحكيم وإرادة . والدين في جوهره ينطلق من علاقة بين خالق ومخلوق . فلا دين بلا إله والسحر العكس .

وهكذا نرى أن افتعال هذه الإشكالية من قبل مجموعة من الأنثروبولوجيين ، أكثرهم من اليهود الخارجين حتى على يهوديتهم ولديهم ميثاق وعقد إنغلاقية وهموم عميقة سعوا إلى تقييدها للذليل

من الأديان السماوية الخالدة بالبحث عن ربط مصطنع بين المنقرض والحى الدائم المستمر الخالد . وكأنهم كانوا جالسين على مقهى وهم يرون هذا المشهد العجيب من تحول المعتقدات البدائية إلى عقائد سماوية !

إن التنكر للواقع التاريخى بافتعال واقع مكتبى مبنى على مجرد ملاحظات وثائقية عن ما هو موجود حالياً فى بعض القبائل المعاصرة التى تعاني من التخلف (لا نقول البدائية) لأنها قبائل راحت ضحية لتسلط الاستعمار الذى أصر على حرمانها من التطور بل حتى من الحياة الكريمة . والاحتفاظ بها محنطة فى ثلاثيات الجهل والتخلف لكى يُتَعرف على نشأة البشرية وكيف كانت من خلالها . . هذه المقولة الواهية نتحفظ عليها ليس فقط باسم العقل والعقلانية وصرامة التحدى ، وإنما أيضاً باسم أبسط مظاهر إنسانية الإنسان .

لقد تأزمت الأنثروبولوجيا المتخصصة فى المجتمعات البدائية بعد أن فرغت من محتواها بفضل هبوب رياح استقلال الشعوب المستضعفة المغلوب على أمرها منذ منتصف هذا القرن ، ولم يعد فى الإمكان الاحتفاظ بمجتمعات بشرية لتظل مجرد نماذج بدائية محنطة يتلهى بها جانب من الباحثين الغربيين . وكان على الأنثروبولوجيا أن تبحث عن إطار ديناميكى يدرس « واقع التجانس فى المجتمعات انفتية » ، ومن ثم كانت الدراسات الجادة « لجورج بلانديه

كثائر وغيره الكثير عن القارة الإفريقية والعالم الثالث . لقد تأكد لنا ومازلنا أحياء أن أسطورة الأنثروبولوجيا المختصة والمتخصصة في المجتمعات البدائية لا تقل خرافة عن الأساطير التي تقوم ببحثها . وعليه فالمعركة المفتعلة بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية والأديان السماوية الخالدة تجاوزتها الأحداث بعد أن استنفدت أغراضها ، واستهلك واستهلك معها القائلون بها .



وبقي التساؤل العريض مطروحاً . وهو لماذا اتخذت هذه العلوم الرئيسية الأساسية الثلاثة : السوسيولوجيا (علم الاجتماع) والسيكولوجيا (علم النفس) والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) هذه المواقف المتحدية للأديان السماوية الخالدة ! ؟ وقد تعرضنا لأبعادها وقصورها وتآزمها وتجاوزها في النهاية . لماذا علوم حضارة الغرب المتخصصة في الإنسان أرادت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . صريحة أو مقنعة أن تستأصل جذور الروحية وتطرح مبدأ القطيعة مع السماء متبينة لفلسفة الأرض ، فلسفة من الإنسان وإليه ؟ ! .

هل هذه المواقف المتحدية تعبر عن هموم غربية تبحث لها عن أسواق خارجية كما هو الحال في أغلب بضائع الغرب ؟ . أم تعبر عن إشكالية كونية تغطي فترة من فترات التطور الفكري ،

على الإنسانية أن تمر بها وتعبها ؟ . أم هي مؤامرة مدبرة من جماعة محددة ضلت وتسعى إلى تعميق الضلال والتعتيم ؟

تساؤل يطرح ونحن بصدد الحوار بهدف التحدى الإعجازى لديننا الخالد عبر العصور .

إنها كل هذه الأسباب مجتمعة . وإن كان السبب الأساسى هو أنها أولا وقبل كل شيء « هموم غربية » تزيت بزى المشروعية الكونية نظراً لتفوق الحضارة الغربية وريادتها بل وتسليطها وسطوتها . وتبلورت فى بعض مراحلها فى شكل مؤامرة تسعى إلى تعرية العالم الثالث المتمحور حول الأمة الإسلامية العربية إنسانياً وروحياً بعد أن عرته من خيراته الطبيعية . . إنه مسلسل الاستنزاف وإزابة الهوية ليسهل الابتلاع — أو على أقل الفروض — التهميش فى انتظار استعادة الغرب لتوازنه المهترئ ، لأنه إن كان قد خسر نسبياً الروحانيات فقد اكتسب الكثير تكنولوجيا ، وصناعياً ، وعلمياً متدرجاً بذلك فى سلم الرفاهية والرخاء المادى . أما عالمنا الإسلامى العربى فعليه — إن لم ير حقائقه بموضوعية — أن يضيف إلى تعاسته المادية يتمه النفسى ، وأن يكمل عراء جسده بفقدان روحه وروحانيته . . من هذا المنطلق نحاول منهجياً طرح أسس التحدى الإعجازى للإسلام ووضعها فى إطارها الحق دون مغالاة أو تجريح أو انفعال .



إن التحدى للأديان السماوية الخالدة كما هو متطور الآن

يُجسد في أرضيته دموم الغرب . فكما نكرر دائماً إشكالية التحدى للدين إشكالية غربية في صورتها المعاصرة مهما تقنعت لتصبح كونية . فبعد أن عاش الغرب ما يترب من ألف عام أو يزيد في عصوره الوسيطة المظلمة . عصور تسلطت فيها بعض الأنسقة النفعية باسم الكنيسة والدين . مستغلة التجريد الميتافيزيقي والصورى لشل فكر الإنسان . غير مكثفة أو قانعة بوضعه السلبي . وإنما حاولت مصادرة تفكيره وتخجير عقلانية . محتكرة الإفتاء له والحكم والتبرير من المنطلق إلى المصير . عرف مع احتكاكه بخضارتنا الإسلامية العربية المشعة آنذاك بداية إرهابات التساؤل العقلاني الذي اتخذ طريقه ليس فقط إلى من أعياهم البحث عن كيفية التحفظ على الاحتكار الكنسي للفكر . بل إلى بعض الكنسين أنفسهم (كهمر ومثال تأثير المدرسة الرشدية — نسبة لابن رشد — على القديس توماس الكويني وما حوله) وحاول كل فريق أن يستغل المعطيات العقلانية الإسلامية لتدعيم اتجاهه أو موقفه .

هذا التحفظ المتردد على التحكم اللاهوتي آل في فترة تالية من مسيرة النهضة الحديثة في الغرب بعد نهاية العصور الوسيطة إلى مدارس فلسفية نقدية متعددة . أكتلت بدورها لعصور الأنوار والمعارفين واستعادة الثقة في الإنسان المواجه الذي لم يكتف بالتحفظ والنقد ، وإنما تجاوز ذلك إلى الاعتراض والاحتجاج بل إلى التمرد والرفض باسم العلمانية للحد من نفوذ الكنيسة وتحجيم

مسئولياتها في الحياة الدنيوية واستبعادها وطرح البدائل الوضعية
لقيادة المجتمع باسم فلسفة الإنسان أو فلسفة الأرض في مواجهة
فلسفة السماء لديهم في الغرب .



وهكذا شهد القرن التاسع عشر ليس فقط بلورة الاتجاه
الوضعي الماركسي، في أو الكونتي (نسبة لسان سيمون وكونت)
والنطوري الماركسي (نسبة لماركس) والدارويني (نسبة لداروين)
والماركسي (نسبة لماركس) وإنما نضوج علوم تدافع عن فلسفة
الإنسان الوضعية هذه . مثل العلوم الرئيسية التي أشرنا إليها سلفاً :
الموسولوجيا (علم الاجتماع) ، والسيكولوجيا (علم النفس) .
والأنثربولوجيا (علم الإنسان) . ولقد زكى الاجتهاد المنهجي
الذي تدعمه بالمسيرة الفلسفية الموازية . التقدم العلمي الذي زكى
ب بدوره تنوع المنهج بتعدد التخصصات فيه ، وخلقت الثورة
الصناعية ميداناً تطبيقياً لممارسة التكنولوجيا كمعرفة رائدة .

ومن ثم تكاملت هذه العوامل ينشط بعضها بعضاً في مجتمعات
غربية (ماركسية تبنت العلمانية قلباً وقالباً ، أو ليبرالية تبنتها
نسياً بشكل صريح أو ضمني) كان عليها أن تصنف حساباتها مع
الدين . وقد جسدت فيه خطيئة بعض الأنسقة الكنسية الوسيطة
ومسئوليتها التاريخية في استمرار فترة ركود تجاوزت الألف عام

من تاريخهم وهمومهم (لا تاريخنا وهمومنا) . حيث في نفس هذه الفترة الموازية تاريخياً كان ديننا الإسلامي هو المدافع عن مشروعية الوجود الدنيوي للإنسان لا إلغائه . واعتبار هذه المشروعية المنطلق للحياة الأخروية الخالدة .

فما طرح الإسلام أبداً كمبدأ « سلبية الإنسان » في الحياة . بل إيجابيته . وما دعا إلى شل فكره وتخليطه وتكهفه وتحجره . وإنما دعا إلى إشرافه وتبصره وتدبره وتحرره ... وهكذا عرفنا نفس الألف عام الوسيطة لا كعصور جمود وركود كما هو حالهم في الغرب آنذاك . وإنما عصور مواجهة فكرية خلاقة بين الاتجاهات السلفية المتأخرة . مثلة في أهل السنة . وبين اتجاهات اعتزالية . وإخوان الصفا . ومفكرين حاولوا تضم التراث العقلاني الإنساني . وأهل خلف : أشاعرة أو ماتريدية واجتهادات أخرى متعددة وفي كل اتجاه . وذلك بالرغم مما كانت تعانيه المجتمعات الإسلامية من انشقاقات وصراعات سلطوية وتحركات خارجية من الظالمين وسماسة السلب والنهب والحروب .

فالإسلام كسيرة حضارية من الخطأ بل من العار أن تجسد فيه الخطيئة والإدانة لمجرد أن الغرب جسد الخطيئة والإدانة في الدين . بل علينا أن نبحث عن خطأ الإنسان البشر لدينا . الذي لا يحمل حالياً من الإسلام إلا العنوان والتسمية . ليس لدينا أزمة دين أو أزمة مبادئ روحية ، وإنما لدينا أزمة سلوك بشري تجاه

الدين وصدق الحق سبحانه إذ يقول : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . . (١) . وكما نكرر دائماً : من الأولى أن نردد « وابشراه ! » لا « والإسلام » فالإسلام بخير وليس لديه مشكلة بل المشكلة مشكلتنا نحن والإسلام هو الوحيد القادر على حلها ولا بديل له . . .

إنه يتحدى في صلاحيته كما يتحدى في ثباته . يتحدى كقوة دافعة للمجتمع . كما يتحدى كقدرة محركة للعقل ، يتحدى في مواجهته ، كما يتحدى في صموده واستمراره داخل القلوب والأفئدة .

لقد رأينا كيف أن النظرة الفاحصة الهادئة البعيدة عن الميئات والتشنج والعفوية قادتنا إلى مواجهة نزيهة مع علوم الإنسان الحديثة المتزعمة في التصدى للدين عند الباحثين الغربيين إلى جانب تيارات الفلسفة المادية ، وكيف أن هذه المواجهة أكدت لنا أيضاً أن هذه العلوم لم تكشف قصوراً في الدين الحق : الإسلام ، بل هي التي تعاني من القصور والأزمات الموضوعية في تطورها ، وحينما تصل بالتحدي إلى غائته وهي مآلية الإنسان ومصيره ،

(١) الصف : ٣٠٢ .

وأن دور المتمسحين في الدين كأنسقة بشرية نفعية لا كتعاليم روحية خالدة . لا يمكن أن يؤخذ بحال حين فشله . على أنه فشل للدين . .

فنحن كنا - ومازلنا -- نميز دائماً وأبداً بين الدين الواحداني الخالد الشامل لإبراهيم الحنفي المسلم . وموسى . وعيسى وبقية الأنبياء والرسل من قبل ومن بعد (عليهم أزكى السلام) حتى محمد صلى الله عليه وسلم خاتم أنبياء ورسل هذا الدين وبه أكمل . وبين من يرتزقون عنصرياً باسم يهودية تجسيمية مفتعلة . أو مسيحية تجريدية مصطنعة وتشبيهية . . اليهودية يهودية موسى وجماعته . والمسيحية مسيحية المسيح وحواريه . والإسلام الشامل لهذا . ومنذ بعث الواحدانية في الأرض إسلام محمد وكل من سبقه من الأنبياء والرسل . ومن تبعه سلفاً وخلفاً إلى يوم الدين . وما يفتعل غير ذلك ويرتزق به فردود لأهله . ولتكن الإداة واضحة في هذا الشأن حتى لا يعوم الدين في مستغليه . وتعم الرؤية أمام أجيالنا الصاعدة . . فالذين أخطأوا في حق الدين ليسوا من رجال الدين . وخطيئة الغرب وهمومه تعنى الغرب والغربيين . ولا داعي لتصديرها كما صدرت إلينا كل بضائعهم الاستهلاكية .

الإسلام يتحدى إعجازياً إذن في هذا العصر من منطلقات موضوعية . يتحدى لأن حركة العقل المتبلورة في تقدم وعطاء ،

علوم الإنسان الرئيسية المعاصرة لم تسجل إصابة واحدة في مرماته وبعد أربعة عشر قرناً من المسيرة الخالدة وبدلاً من أن يتأزم الإسلام تأزم المتحاملون عليه . فالكل يرفع الآن شعار أزمة الحضارة الغربية المادية المعاصرة (لمن يريد لتفصيل عن أزمة الحضارة المعاصرة يراجع المجلد الخامس من نظرية المراهنة الصناعية : الصناعة وأزمة الحضارة . شاركنا في وضعها مع مجموعة من علماء الغرب بالفرنسية) إصابتها ردت إليها ، وكان المفروض لو أن الإسلام مجرد نظرية بشرية — كما يزعم الأدعياء — لا إلهية خالدة لما استطاع أن يثبت أكثر من حياة جيل أو نصف قرن عملاً مبدأً تطور وتجدد الرؤية البشرية للإنسان عبر الأجيال وديناميكية المجتمعات وآلياتها في التغيير بين التخطي ، والتصويب بهدف التصحيح أولاً بأول . وكم من نظريات كبرى عملاقة لا يمر عليها أكثر من قرن وتبدأ فيها الشقوق ريعتريها التأزم (مجرد مثال معاصر النظرية الماركسية وهي من أقدر النظريات دون شك ، ويحاول الآن شراحها ونقادها — ونحن منهم — كشف قصورها للتجاوز على ضوء الذي جد على الإنسانية خلال عصر الفضاء والذرة ، وخلال قرن فقط) ... إن كان هذا حال النظريات المعاصرة فمن باب أولى إذا كانت نظرية الإسلام نظرية بشرية — حاشاً لله — كان عليها أن تستجاوز بعد قرن أو قرنين أو على أكثر تقدير ثلاثة وقل أربعة ، أو حتى مطلع ضربات

عصر النهضة الغربية العقلانية العلمية الممنهجة ... أما وقد ثبتت في الأرض لأنها إلهية خالدة لإنقاذ الكون ، مصداقاً لقول الحق : « فأما الزبد فيذهب جفاءً ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » (١) . فعيننا أن ننحى إجلالاً لله ونصلي ونسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون » (٢) صدق الله العظيم .



وبقيت لنا في جولة التحدى الإعجازى للإسلام في هذا العصر عنصراً أساسياً . آن الأوان أن نطرحه في نهاية المطاف . وهو إن كانت الاجتهادات العقلانية الفلسفية ، ثم الاجتهادات العلمية ، لم تكشف قصوراً في الإسلام ، بل الإسلام واجهها وتجاوزها . . هل يمكن أن نراهن على أقدر ما في هذه الاجتهادات المعاصرة وهي قدرة المنهجية باعتبارها القلعة الرائدة لكل تحدى في ميدان الفكر السائد حالياً ؟

فمن المعروف أن حضارة الغرب المسيطرة كونياً بشقيها اللبرالى والماركسى تراهن — بين ما تراهن عليه في الصدارة — على عطاء المنهج ليس فقط على مستوى الظواهر الطبيعية واكتشاف قوانينها محملياً بفضل الملاحظة والتجريب ، وإنما أيضاً على مستوى الظواهر الإنسانية ، فقد حاول المجتهدون في هذا الشأن

(٢) الحجر : ٩ .

(١) الرعد : ١٧ .

تطبيق منهجية الملاحظة . وفي بعض الأحيان التجريب والاختبار ،
على الظواهر الإنسانية هذه ، لا عن طريق عزها معملياً والسيطرة
عليها : واكتشاف قوانينها . كما هو الحال في لظواهر الطبيعية ،
وذلك لوعي الإنسان بالتجربة ، وصعوبة عزله كظاهرة إنسانية
عن بيئته . والحد من تداخل العلاقات المسيرة له . وإدخاله إلى
مخبر أو معمل لإجراء تجارب على عواطفه ومشاعره ، وحبه
وكرهه . وميله رنفوره . وما يدور في داخل أغواره وأعماقه .
وإنما عن طريق استغلال قدرة الملاحظة وتنوعها وتعددتها سواء
ملاحظة غير مباشرة بفضل التوثيق لكل ما له علاقة بالظاهرة
من مصادر ومراجع كتبت عنها أو سجلت سمعياً أو بصرياً أو
ملاحظة مباشرة تبني التعامل ميدانياً مع الظاهرة بإجراء استطلاعات
وتحقيقات حقلية . بما في ذلك من « مقابلات » و « اختبارات »
و « دراسة حالة » و « قياس اجتماعي » يركز على المعطيات
الإحصائية واستغلال لكل طرق البحث المعروفة علمياً في هذا
المضمار خصوصاً « الملاحظة بالمشاركة » والعيش مع الظاهرة في
فترات متباعدة أو متتالية . متعددة ومتنوعة . في محاولة للتعرف على كل
أبعادها ومراميها حجماً ، وكماً وكيفاً ، وصفاً وتفسيراً وتحليلاً ، بهدف
التعرف على كل العوامل المهيمنة لسببيتها وما يترتب عليه من
استنتاج موضوعي وتنجيز صارم .

فلم يقف التفكير عند حد التجريد المنطلق من مسلمات

وبديهيات وتعاريف ، ومعتمداً على الاستدلال ليصل إلى نتائج
قياسية « إذا كان » ، « فعليه يكون » وإنما طرحت فرضية التعليل
« لماذا » المرتكزة على الملاحظة بدلا من الاستدلال والقياس . بل
وحتى المسلمات التي منها ينطلق أضحت بدورها موضع تساؤل
واستفهام . . .

هذا التطور المنهجي ، والذي تأكدت فاعليته في علوم الطبيعة .
لمست صلاحيته في علوم الإنسان بعد أن تكاملت الطرق
الاستقصائية له . كطرق بحث لاستيعاب عناصر لظواهر مع
قدراته الشارحة ، وقد تعددت في علوم الطبيعة بتعدد التخصصات
وتنوعها . في علوم الإنسان تبلورت حول محاور رئيسية ثلاثة
كل محور يمثل إتجاهاً أساسياً في الشروح كما أشرنا من قبل في مدخل
هذه الدراسة . ونعني بذلك إتجاه يسجده المنهج التاريخي . وآخر
يمثله المنهج التحليلي . وثالث يمثله المنهج السوسيولوجي - المنهج
التاريخي ينطلق من رصد الوقائع والأحداث أو الأفكار تسجيلاً
وتسلسلاً عند المؤرخ . لتحديد مدى صحتها عند عالم التاريخ بفضل
استجوابه وإستنطاقه لها . معدداً للرؤية ومحتكماً للعوامل الاقتصادية
والتربوية والدينية والنفسية والديمغرافية والسياسية والبيئية .. ليتجه
بها بعد ذلك فيلسوف التاريخ إلى التعليل والحتمية . . .

— بينما المنهج التحليلي تذبناه كتمذرة شرح أغلب العلوم الاجتماعية
الخاصة وهي التي تعتمد على قواعد أو أنسقة محددة تركز عليها

فى التحليل كالعلوم القانونية واللغوية والديمغرافية والاقتصادية . . .
ويأتى المنهج السوسولوجى كشروح شمولية جدلية مادية . أو
أو جدلية أمبريقية (واقعية) أر بنيوية وظيفية وقد وضحنأ ذلك
نفصيلا فى الفصل الأول من هذه اللمحات عن المنهجية وكيفية
استئناسها فى الإسلاميات فى الفصل الثانى . . .

وعليه هل يمكن لهذه القدرات المنهجية بدورها خصوصاً
المطبقة فى علوم الإنسان (باعتبار أن الإسلام ليس رسالة فى
الطبيعة أو الكيمياء أو البيولوجيا وإنما هو أكمل وأسمى من ذلك .
هو رسالة شمولية للإنسان ومصيره فى كل زمان ومكان) أن
تصبح أرضية للمواجهه فى التحدى الإعجازى للإسلام له أو
أو عليه ؟ . . . هذا ما سوف نطرحه الآن منطلقين من التساؤل
التالى : هل يمكن للمنهجية المعاصرة وهى التى تتغنى بها الحضارة
الغربية وتشكل رأس ربحها فى التصدى بل وتسجد قدرتها
الأساسية فكريباً فى هذه الآونة أن تكتشف من خلال مواجهة
صارمة لماضى الإسلام وحائسره وتطلعاته المستقبلية قصوراً لم
تستطع مسيرة الفلسفة والعقلانية . ولا المسيرة العلمية أن تكتشفاه .
وتأتى المسيرة المنهجية فتكتشفه ؟ أم العكس نفس هذه المنهجية
وقد وضعت فى حوار نزيه مع الإسلام (كمبادئ لا كبشر)
تؤكد لنا صلاحيته فى عصوره الماضية وفى عصرها الحاضر
وتقف عاجزة عن تجريح تطلعاته المستقبلية الحالية ؟ .

ولنبداً بالماضى من مسيرة الإسلام فى محاولة تقنينية لا عقلية ولا عقلانية صورية - مع اعتزازنا بالنقل والعقل فى مختلف مظاهرها وصورها -- وإنما تركز ومن البداية على التساؤلات الجدلية مادية أو أمبريقية أو على الشروح المنهجية المعاصرة باعتبارها أحدث ما أخرجته الفكر البشرى . . .

فحينما نكون أمام ظاهرة عملاقة عشت تاريخياً ، وغطت فعلاً أعواماً طويلاً من المواجهات . وكان لها معاصرون ومشاركون بين متحمسين لها أو معارضين . سنلجأ بالضرورة والالتزام منهجياً لتعدد الملاحظة غير المباشرة (أى التوثيق التاريخى) مستجوبين ومستنطقين للوقائع والأحداث المادية . ونستبعد مؤقتاً الملاحظة المباشرة التى تتطلب أساساً عنصر المعاصرة للظاهرة . وهذا مستحيل فالظاهرة عشت فى آنها . اللهم إلا ملاحظة آثارها . . .

أما استنطاق الواقع التاريخى واستجوابه فيكون عن طريق من جسده آنذاك لا عن طريق انطباعات مكتبية من مبيات أو من صنع القرن العشرين . . .

ولإلا كيف يمكننا أن نرفض استنطاق واستجواب معاصر للنبوة الخالدة ونقبل فى مكانه حكماً عفويّاً أو تذوقاً كيديّاً . أو موقفاً عشوائياً من إنسان جالس فى مكتب مكيف فى باريس أو لندن أو موسكو أو واشنطن يشعل سيجاره على أنغام الموسيقى معلناً فى تبجح جهول أو اعتباط أعشى بصيرته : لا.. هذا لم يحدث . النبوة لا وجود لها ؟! ؟ . . .

نقول لهم أين المنهجية التي ألزمتونا بها يا علماء الغرب
المادى؟ أمثل هذه البساطة والعفوية يقاس مصير الإنسان وعلاقته
بالسماء؟ أم أنكم فى المنهجية كما كان الشأن فى الكتاب.. «أفتؤمنون
ببعض الكتاب وتكفرون ببعض» ؟ (١) . . .

باسم المنهجية نواجه ظاهرة النبوة الخالدة بالاحتكام لمن
عاشوها وعایشوها، وكيف بدأت وكيف تطورت، وكيف آلت ؟
وهل واجهت من أنكرها فى البداية؟ وكيف غير هذا المنكر موقفه .
ليس فقط ليؤمن بها بل ويضحى شهيداً بحياته فى سبيلها . . .

إن الملاحظة المنهجية الصارمة لعصر النبوة الإسلامية الخالدة
المبنية على استنطاق الأحداث واستجواب الرقائق تؤكد لنا أن عصر النبوة
عرف المتحدى كما عرف المؤمن . وعرف المتقبل كما عرف المفكر .
ولكن كل من شاهد نور النبوة الخالدة وإشراقة الإلهى المعجز آمن
بها فى النهاية ، اللهم إلا ما ندر ممن فى قلبه مرض ، أو حاجة فى
نفس يعقوب ، أو من لديه نكرة أو تعصباً رعصية قبلية عمياء
أو حقداً وحسداً فى أن تكون النبوة له لا غيره ، أو انفاقاً
وإرتزاقاً . كما نشاهد فى عصرنا هذا ، وفى كل العصور «من يعبد الله
على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب
على وجهه»... (٢) بينما كبار المنكرين الزهاء فى البداية أصبحوا

(٢) الحج : ١١ .

(١) البقرة : ٨٥ .

كبار المؤمنين الشرفاء في النهاية بعد أن بهرهم نور النبوة بقرآنه المعجز فأمنوا عن قناعة كمعاصرين بل منهم من استشهد مضحياً بأعز ما لديه وهي حياته في سبيل الله . (كمجرد مثال على سبيل الذكر لا الحصر : عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وغيرهما الكثير) .
رضي الله عنهم جميعاً . . .

كيف يمكننا أن نرفض إذن شهادة معاصر عاش الأحداث بقناعة وشارك فيها منكرأ أو مؤمناً . ونقبل شهادة مرتزق أو معاند مستكبر في القرن العشرين . ليس له من رأس مال منهجي إلا مجرد التخمين والظنون والفرضيات الاعتباطية بل والاستدلال الغيبي المادى المزعوم . يهتموننا في إيماننا بالغيبية ونحن بها نفخر ونعتز . ولكن هم حينها يلحدون غيبياً يعتبر هذا ضرباً من الوعي ومراة للتقدم . إنه التغميض بعينه . لتقارع حجة بحجة وتحت راية المنهجية التي هي من وضعهم . . .

المعاصرون للنبوة الخالدة آمنوا بها بعد أن كان لهم الخيار دون إكراه بين القبول والرفض . دون اعتداء على المؤمنين « لكم دينكم ولي دين » (١) ومنهم من اقتنع بها بعد صراع دام . ثم استبسل في سبيلها . فكيف نتنكر لهذا الواقع التاريخي الملموس بصراعه ومواجهاته ومآليته . ونتقبل أساطير مطبوخة وملفقة في القرن العشرين من مستلب بأنماط فكرية مفلسة

(١) الكافرون : ٦ .

أو من حاقده أو مريض بالوهية مزيفة لم يلتزم في تبريرها بأبسط أسس المنهجية التي يتشدد بها . إنه يكفر أتباع الإله الحق ليؤمنوا به هو كإله مزيف مصطنع عوضاً عنه . . .

ثم ماذا ؟ لنفترض أن كل المعاصرين للنبوة خدروا أو نوموا فسلموا بها . بعد أن غابت عنهم حقيقتها التي لم تكشف إلا بفضل عشاق اللغو في القرن العشرين من المنكرين باسم المادية . فلنزل إذن إلى جوهر ومضمون هذه الحقيقة ولندعها تتحدث عن نفسها ، ونحتكم موضوعياً إلى محتواها وبمقاييس هذا العصر ومناهجه وقيمه وأسس الحضارية ، لا بمقاييس عصرها فقط . . .

إن البشرية لديها الآن من المدارس الفكرية والمذاهب الكبرى المنقذة — على حد زعمهم — للإنسانية الكثير : من سان سيمونييه مثالية ، وكونتية وضعية وتطورية . وداروينية وماركسية نشطة ، وبنوية وظيفية شارحة ، ووجودية مفجرة ليأس الإنسان ومحصنة له في نفس الوقت . وذرائعية واقعية . . . إلى غير ذلك من الاتجاهات والتيارات المعاصرة . . . والإسلام لديه قرآنه الخالد وحكمة النبوة القدوة الرائدة . فلنحتكم ولنقارن في الحاضر بعد أن احتكنا إلى الماضي . وتأكدت لنا عفوية التكر للنبوة . . .

ولكن حينما نطرح الحاضر . نعي حاضر الإسلام ، كبادىء لا حاضر المسلمين كبشر مستضعف في غالبته مهذور الكرامة ، ومقهور في أرضه بمباركة الإمبرياليتين وتواطئهما . فلنواجه

الإسلام واضحاً - هذه المدارس والمذاهب الكبرى المعاصرة . رغم مرور أربعة عشر قرناً كفارق زمني بينه وبينها . . .

هل نكتشف في مضمونه ومحتواه قصوراً لا بعد أعوام وإنما بعد كل هذه القرون ، أو نعرى فيه عورة لم تستطع المسيرة التاريخية أن تعريها ؟ .

إن المدارس والمذاهب المعاصرة الكبرى نظرت لبنية الإنسان وعلاقاته الأسرية والمجتمعية والطبقية ، بل والأمية ، وحاولت التطبيق العلمي باسم السوسيولوجيا (علم الاجتماع) كما نظرت الإنسان في أغواره وأعماقه اللاشعورية والشعورية وعلاقته النفسية ببيئته . وزعمت التطبيق العلمي تحت راية السيكلوجيا (علم النفس) وغاصت في نتاجه المادى وغير المادى تراثياً بتقاليده وعاداته وأعرافه . وتبنت التطبيق العلمي باسم الأنثربولوجيا الثقافية والاجتماعية (علم الإنسان) كما حاولت أن تمذهب أيضاً تطلعاته الإنسانية والطبقية والاجتماعية عبر صراع مفتعل ومبيت . لتحذ من صراعه الموضوعى الملموس . وتعوّمه في أطروحات مزيفة متشددة بما تتمناه وتحققه لنفسها وتنكره على الآخرين من عدالة ومساواة وحرية وتقدم . سواء ليبرالية كانت أم ماركسية . . .

لنرى مقارنين ، هل تجاوزت هذه المدارس والمذاهب الإسلام في عطاءها ، أم ما زال وسيظل بتزاهته وبساطته متجاوزاً لها ؟ هل في إمكانها وبروح رياضية بعيدة عن التعصب والتزم

والانفعال والغوغائية اللفظانية و)بالاحتماء خلف مسميات وألفاظ مبتدعة لمدارة العورة والإفلاس الفكرى . بعد اكتشاف القطيعة المريرة فى حضارة الغرب بشقيها الليبرالى والماركسى بين ما يقال وما يفعل) أن تنازل الإسلام وتدحضه فى مبادئه أم أن الإسلام فى إمكانه بصفاء أسسه أن يكشف ما فيها من هزيمة وإهزام لجوهر الإنسان ؟ ..

لن نقف طويلا عندما يحسب للإسلام من مثل خالدة اعترف بها الخصم قبل المرید فيما يعنى بناء المجتمعات والأمم تحت راية اللقاء فى الله . ونبد التنافر والتطاحن والحروب، والدعوة إلى الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة، أو المجادلة باتى هى أحسن . والدفع أيضاً باتى هى أحسن ، حتى يتحول العدو إلى ولى حميم . أليس رسول الله (عليه السلام) القائل بالنسبة للحوار مع أهل الكتاب « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلنا وإلهمم واحد ونحن له مسلمون » (١) ومن ثم كان الحث على التكامل والمودة والرحمة والتعاون بين بنى البشرية هدفاً وغاية من غايات الإسلام . .

كما لا نتوسع فيما نظرّه الإسلام للفرد وعلاقته بذاته وأغواره . وبأسرته وجاره ومن يحيط به فى شكل بناء ومعطاء ومتوازن ، وإنما نقف أمام الزاعمين لما يحسب عليه ، فماذا يؤخذ على الإسلام ؟

(١) النكبات : ٤٦ .

أو ماذا يأخذ الإسلام على المذاهب المعاصرة في حالة نزاهته من
التقصير بالمأخذة ؟ .

إن كان المسلم القدوة كما بناه الإسلام ومحدده لم توجه إليه
اتهامات - في حد علمنا - لأن الإسلام في تربيته للإنسان يزكي فيه
روح التعادل والتفهم والتفاهم مع ذاته أولاً ليسهل عليه بعد ذلك
التفاهم مع الآخرين . . بل أعطى أهمية كبرى للرضا والقناعة
في داخل الإنسان (فإنسان غير راضٍ عن نفسه لا يمكن أن
يرضى عن أى شيء يخطط به) . موضحاً للنفس الأمانة من ناحية
والمطمئنة واللوامة والراضية والمرضية من ناحية أخرى ... فبناء
الإسلام للأسرة خصوصاً تعدد الزوجات . والرجل القوام المتصرف
كانا محل اعتراض وتجريح من دعاة الغش باسم المساواة .
ودعاة التحلل باسم التحرر . وكما يقول المثل المتداول « رميتني
بدايها وانسلت » . .

يقولون: تعدد الزوجات وسلطوية الرجل في الأسرة وقهره
للمرأة ؟ ؟ أما تعدد الزوجات فما دعا الإسلام أبداً المكتفى بزوجة
واحدة إلى التعدد حباً في التعدد ، بل نهى ضمناً عنه
« ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » (١) . .
« فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » (٢) . . .

(٢) النساء : ٣ .

(١) النساء : ١٢٩ .

ولكن حينما نكون أمام نموذج من الرجال لم يعد في استطاعته الاكتفاء بزوجة واحدة، لظروف قاهرة نفسية أو اجتماعية أو بيولوجية. ونفس الشيء بالنسبة للمرأة فتطلب الطلاق -- بمعنى منع حالة على عتبة الشذوذ والانحراف. هل من الأولى أن يمارس الطلاق بالنسبة للطرفين. والتعدد الشرعي للزوجات بكل ما فيه من مسئولية أمام الله والمجتمع سواء فيما يخص الرجل أو المرأة أو الأطفال في حالة وجودهم، دون تنكر أو هروب « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً... (١) وقول الحق سبحانه أيضاً « وعاشروهن بالمعروف » (٢) أم يلجأ إلى إغراء امرأة لتصبح عشيقته يلهو بها ويتمتع بجسدها بعد استرخاها وعليها أن تتحمل هي وحدها النتائج والذنس والعار والمزاولة غير المشروعة جنسياً ؟ ثم ما يسهل بعد ذلك بالتعود والاعتياد من إباحة للمزاولة الشائنة وتعميمها والدخول في مسلسل الانحلال باسم التحرر -- كما نشاهد للأسف الآن -- ونشر الأمراض الجنسية والتسلي بأعراض البشر كسلع استهلاكية . . . ثم الملل من كل ذلك وفقدان الجنس لطابعه الأساسي . من أنه وسيلة مقدسة للاندماج والاستمرار المشروع للبشرية من خلال حياة كريمة برضاء الله وحماية المجتمع . . .

(١) النساء : ٢٠

(٢) النساء : ١٩ .

يلوموننا في تعدد الزوجات وحولهم عشيقاتهم وما خجلوا
 من أنفسهم ، إنهم يحرمون الفضيلة ويشرعون للرذيلة ويحنون عليها
 ويتلذذون بها . . ثم يكملون تجريحهم الأعمى بالتفسير الخاطيء
 « للرجل القوّام » من أن في ذلك تمييز تعسفى له على المرأة . . إنها
 قراءة مغرضة ومغلوطة للآية الكريمة « الرجال قوامون على
 النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم »... (١)
 فالتفضية مفاضلة ربطت بالإنفاق على الأسرة وعظفت عليها
 فالرجل قوّام منفق داعم ، وليس قوّام متسلط ، وعلاقته مع الزوجة
 دستورها المودة والرحمة . . .

إننا نلاحظ الآن ، وفي هذا القرن ، العديد من النساء الغلاة في
 التحرر والمساواة عبر المجتمعات الصناعية قد وقعن في العزلة
 ومرارة القطيعة ، وأصبحن يتحسرن على الرجل القوّام الودود
 الراعى لتشعر المرأة في كنفه بالحنان والعناية والحماية والمودة
 والرحمة والرعاية العاطفية ، بعد أن تحولت الأسر إلى شركات
 مساهمة مجهولة الهوية ، العلاقات فيها مبنية على الحسابات التجارية ،
 وقد جفت فيها العواطف . .

فما عرفت المجتمعات في تاريخها مثل ما تعرفه الآن من

(١) النساء : ٣٤ .

إنحصام أسرى . وتدلّيس في المشاعر ، وتلاعب بالعواطف
بعد أن اهتزت المعايير . . .

كذلك لا يمكن بحال أن يفهم تعبير «قوَّام» على أنه مانع للمرأة
من أن تلعب دورها موضوعياً في المجتمع وتشارك في تقدمه
كعضوة منتجة تعمل فيما أهلت له دون أن يخل هذا بأنوثتها
ورقارها ومكانتها كزوجة وكأم ومدرسة أوى لبناء المجتمع من
خلال بنائها للطفل تربوياً ونفسياً في خطواته المبدئية لمراحل نموه .
وتستمر الأطروحات المغلوطة للأخذ من الإسلام والنيل منه
يصنرها من في قلوبهم مرض أو حقد أو كيد، فيأتى الرق ليلصق
في الإسلام، وكأن الإسلام هو الذى أقره وشرعه في تاريخ الإنسانية،
وغاب عن الكثير، جهلاً أو تجاهلاً، أن أطروحة «الرق في الإسلام»
مغشوشة بدورها من الأساس

فإذا كان هناك دين أو مذهب فلسفى أو سياسى اجتماعى
واجه الرق عملياً، ودعا إلى الحد منه كظاهرة مستوطنة ومزمنة في
العصور القديمة والوسيطة تجسد عنصراً اقتصادياً يكمن في استغلال
عسل العبد وحقاقته في الإنتاج والعمل مثل الإسلام ، فقد اتخذ
من تحرير الرق وسيلة من وسائل التترب إلى الله ، وطريقاً إليه
وكسب عفوه وغفرانه ورضاه . (ولمن يريد التفصيل يراجع
دراستنا المنشورة بالفرنسية في المجلة التاريخية المغربية الصادرة في
تونس في يناير سنة ١٩٧٧ - عدد خاص) . . .

وتتوالى المغالطات تجاه الإسلام ورؤياه الاجتماعية للعلاقات بين الجماعات والطبقات ويتمشدد البعض بوصفه أنه دين كبقية الأديان المرتبطة بالبنية الفوقية للمجتمع ، دون أن يهضم الإسلام ، أو يراجع بعمق الأرضية الفكرية التي يحكم على ضوءها، ليرى أنه من الخطأ تعميم الانتماء للبنية الفوقية على كل الأديان وإقحامها برمتها في تسرع . ودون ترو في الأيديولوجيات الاستلاية المتصدرة، كما صنفها لفكر التقدمي الغربي إنطلاقاً من همومه الغربية، وصراعه ضد استئلال البعض للدين . . .

فإن كان من دين دعا إلى العدالة الاجتماعية وتجاوز الصراع انطبق بحلول جذرية لا بمقولات مكتبية لا صدى لها في الواقع الملموس فهو الإسلام . . .

المذاهب الاجتماعية الكبرى المعاصرة تؤكد وجود الصراع الطبقي نتيجة لوجود طبقٍ مُستغلٍ لنتيجة مجرد الوجود الطبقي في حد ذاته، كانعكاس لوضع ملموس وهو « كل حسب أهليته وكل أهلية حسب ما تنتج » كما لاحظته أولسان سي.يون كمذهب إجتماعي ثم حوره ماركس من بعد في نصفه الأخير ليصبح « كل حسب أهليته وكل أهلية حسب ما تحتاج ». وها نحن بعد ما يقرب من قرن منذ وفاة كارل ماركس نرى صعوبة تحقيق ما ذهب إليه من مقولات خاصة بتصنيف الأهلويات حسب احتياجها وإنما حسب إنتاجها بما في ذلك المجتمعات المتبينة قولاً لهذه المقولات، والتي

عجزت عن تحقيقها فعلا، لما فيها من حث مبطن على التكاسل والتواكل وتحويل المجتمع إلى سوق للعمالة دون إنتاج في المقابل ، وخلق لطبقات طفيلية تؤمن حقوقاً لها مفتعلة على المجتمع ، دون عطاء منتج ، وأدى هذا إلى التراجع ضمناً أو السكوت المبيت عن هذا المبدأ لدى القائلين به من الممذهبين والمتمذهبين . . .

وأما الإسلام ولم يتنكر لكبد الدنيا « لقد خلقنا الإنسان في كبد » (١) ولم يتجاهل الصراع الطبقي ، بدفع الناس بعضهم لبعض كحقيقة ملموسة ونشطة في الوجود ، وما يترتب عليه من متغيرات وثورات وحروب بكل آثارها من تعويضات وأسر وسبايا . وإهدار لوضع المتسلط الظالم بعد هزيمته . حتى يكون عظة لكل متطلع إلى الظلم والطغيان . . . فحينما صنف كل حسب أهليته بعد أن جعلنا خلائف في الأرض ، ورفع البعض فوق البعض درجات لا للاستغلال والظلم ، وإنما للاختبار والبلاء فيما أتانا من درجات وأهلية وقدره ، وكيف نتصرف فيها بما يرضى الله ويحقق العدل في المجتمع ، حدد لنا بذلك أسس تجاوز الصراع إلى السلام لا تفجيره بالحروب والدمار . يقول الحق سبحانه لبيان هذه الأسس « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم في ما آتاكم » (٢) وقوله « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين

(٢) الأنعام : ١٦٥ .

(١) البلد : ٤ .

والأقربين» (١) وقوله « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، (نصيبك فقط وليس الاستحواز على أنصبة الآخرين إستغلالاً وظلماً) وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين» (٢) وقوله « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (٣) وقوله « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » (٤) . . . إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الخالدة التي تشكل دستوراً لمعايير التصرف السليم في الأهلية والقدرة لما فيه صالح الجماعة والمجتمع وتحقيق ملموس للعدالة والمساواة والحرية . .

إن هذه الحجج دامغة تقامها ليتأملها أذعياء اللغو والخوض دون معان أو تدبر في الإسلام، ممن امتطروا الموجات الزريف أو تاجروا في الألفاظ والمسميات . . .

لقد صدرنا في عرضنا هذا ، ما ظن البعض أنه مآخذ يمكن أن تؤخذ على الإسلام إجتماعياً . وأظننا كيف أن هذه المآخذ لا وجود لها إلا في عقول مبتدعيها . وأن الإسلام صامد في تحديه الاجتماعي المعجز في بناء الفرد والأسرة والجماعة إلى جانب الأسس الخالدة التي وضعها لضمان استمرارية المجتمعات البشرية والأمم ، تحت شعار لتعارف والتآلف والتكامل الكوني والسلام . .

(٢) انقصص : ٧٧ .

(٤) الفرقان : ٧٦ .

(١) النساء : ١٣٥ .

(٣) النساء : ٥٨ .

وبقى علينا في النهاية وباسم الحوار والتحدى الإعجازى للإسلام
منهجياً في هذا العصر. أن نتحدى لما ظن بعض المهرجين باسم
علمية متكلفة ومصطنعة واهية إلا علمية رصينة واعية أن نرى
استطاعتهم اكتشافه في الإسلام كأساطير وخرافات . وأنهم
بذلك سرف يوجهون الضربة القاضية إليه وينالوا من ديننا ما
ابتغوه . بعد أن نالوا من جماهير المسلمين . واستضعفهم
ونهبوا خيراتهم . ولم يبق لهم إلا أن يسلبوهم عقولهم وعقيدتهم .
ونعني بذلك ما ورد في الإسلام : قرآنًا وسنة بشأن الوحي والنبوة ،
وجلال الله ، والغيبات ، وأسرار الكون وخفاياه . . .

وأما الوحي والنبوة فلا يسئل بشأنهما إنسان متعلق بالدنيا
وزينتها، وقلبه غارق في متاعها، وجسده متهالك وهالك في منكرها ،
أو من أدار ظميره لتعاليم السماء أساساً . هذه الفصائل من البشر
قد اختارت من البداية إلى النهاية طريقاً مغايراً ومعارضاً . ربما
من الأولى أن تستمتعي وتُسئلي عن متاع الدنيا وملذاتها، وقد خسرتها
وعاشت من أجلها، ولم يبق لها إلا أن تحمل ذلك معها إلى قبرها . . .

ومع هذا، فلماذا المتعلق بغرور الدنيا الحق في أن يجادل
ويخاجج، وعلينا أن نتحدى له بالرد المقنع مستعينين بهدى الله .
وما أهل به عقولنا من معرفة ويقين . . .

النبي أو الرسول إنسان بشر ، إصطفاه الله واختاره بناء على
أهلية تؤكد صحة ، وصدق وصواب، وسلامة هذا الاختيار .

اختيار ويجعل النبي أو الرسول جدير بهذا التشریف الإلهي الخالد ،
ومن ثم نستبعد من البداية أى مجادلة تسعى للتغميض بصدد النبوة ،
متخذة من السيرة الذاتية لنبي أو رسول بشر مجالاً للتشهير المغرض
والتفسير المغلوط لوقائع حياته إفتراء وكيداً . ولو أن الرسول
أو النبي سلك غير ما يسلكه البشر لاتهموه بالألوهية الأسطورية . . .
يقول الحق سبحانه - وهو فصل الخطاب في هذا الموضوع -
مبيناً لإمكانات النبوة وحدودها « قل لا أقول لكم عندى خزائن
الله » . . الآية (١) كما يقول سبحانه « قل لا أملك لنفسى
نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب
لاستكثر من الخير وما مسنى السوء، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم
يؤمنون » (٢) . . .

وهكذا تبدو واضحة الخصائص البشرية للنبوة والممانعة
من كل مجازفة تغميضية . . .

وعن الوحي وصدقه نقول هو مرتبط بصدق الموحى إليه
واصطفائه . وخير من يسئل عنه - كما قلنا في البداية - ويستشهاد
به من عاصره ، ومن سار في طريقه بعد أن كان منكراً له، فهو
أدرى وأعلم إن لم يك أقرب إلى الحقيقة بمعاصرتة لها . أما الذى
تبني طريق المجازفة والتهور والعناد دون معاصرة أو مشاهدة فهو
قد افتعل لنفسه طريقاً مغشوشاً لا علاقة له بالوحي والنبوة . . .

ومن ثم كان أولياء الله أكثر الناس قرباً لأتقيائه والصالحون . فيم من نفس الطريق، طريق حب الله، يقول الحق سبحانه « والذين آمنوا أشد حبا لله » () تقربوا إلى الله فاقرب نور السماء من قلوبهم وأنارها، وأما الذين أداروا ظيورهم، فقد كان طبيعياً أن لا يشعروا بشيء بعد أن انطفأ النور في قلوبهم، وعمها ظلمات الضلال . . .

يقول المعاند المتبجح أو الظنَّان المتشكك المتعاق بالدين فألهمته عن 'خالقه' : هل الوحي ممكن؟ وهل النبوة ممكنة؟ ؟ مع أنه غير قادر على أن يركز على الحوار مع الله خلال صلاة قد لا تدوم أكثر من دقائق معدودات فهو يظن أنه واقف بين يدي الله وفي حوار خاشع معه ، غير أنه في الحقيقة وبكل تفكيره منصب في صلاته على تذكر مشاغله الدنيوية وما يجنيه ويومه . وفي كل أيامه من متاع زائل . . . بينما النبي أو الرسول حاور السماء سنوات طوال في غاره أو خلوته لا يمل ولا يتعب ولا يغفو، بل يطلب وبكل فؤاده المعبأ، وقلبه الواعي ، وبصيرته المركزة المزيد من نور السماء . كيف يرتقى إليه ، ومن باب أولى كيف يرتقى إلى التعرف عليه والاعتراف به، هذا الغارق حتى رأسه في شهواته الدنيوية ؟ وقد ملأت عليه كل مشاعره وبها ومن أجلها يعيش ، ما أقام صلاة ، ولا تذكر خالقه إلا الحاجة في نفسه

بقضيتها ما كراً بربه ، كيف يخق له . وهو في هذه الحالة من عدم الاختصاص أن يحكم أو يستغنى في الوحي والنبوة ؟

يُطلب من رجل القانون أن يكون له اختصاص وتأهيل في القانون قبل أن يفتى فيه . ومن رجل الطب الاختصاص في الطب حتى يمارسه ، ومن رجل الهندسة . . . ومن كل التخصصات الاختصاص والتأهيل قبل الإفتاء .

وأما النبوة فيستغنى فيها ويفتى فيها من يشاء « أليس هذا من باب الاستهتار والسخرية بالعقل والعلم والمنهج خصوصاً ممن زعموا الاحتماء بهم ضد تغميض الأساطير وتسلط الخرافات . . » ؟

ميدان النبوة والوحي ميدان له قداسة ومسيرة . وعلى الغارقين في ملاذ الدنيا أن يتلوهوا بها ، ذلك هدفهم . ومبلغهم من العلم . وليتركوا — على الأقل — للمؤمنين بنبوة السماء . الشعارين بانعكاس نورها في قلوبهم حتى الإعراض عنهم وعن دعوتهم . مصداقاً لقول الحق سبحانه « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم » (١) . ثم ندعهم يقولون لنا ماذا أعطتهم وماذا تعطيهم دنياهم التي عبدها حينما تبلغ الروح الخلقوم ، وحينما تأتي اللحظات الأخيرة للرحيل عنها . وهم بملذاتها في غفلة لاهون ، فتوقظهم طرقات الموت ؟ كما جاء في حديث رواه أحمد « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » وكما قال

(١) النجم : ٢٩ ، ٣٠ .

عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : « لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيا رجل ثم جاءه الموت لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسره ثم سيقظ فإذا ليس في يده شيء » . . .

هم يتدلون مغررين أنفسهم خادعين لها : « ما هي إلهياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » (١) وكأنهم شهدوا خلق أنفسهم . يقول الحق سبحانه في التحدي لقولاء « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » (٢) من أين جاءهم إذن التأكيد والتأكد ؟ ؟ أو كما قال الحق سبحانه « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » (٣) أو أنهم خلقوا شيئاً يدعم حاجتهم يقول الحق سبحانه « أروني ماذا خلقوا من الأرض » (٤) . . . أو حتى يجيبون على بقيه التساؤل أو يكملوه . لماذا يموتون ولماذا يحيون ؟ ؟ هل لمجرد العبث ؟ ولكن يجيب الحق سبحانه « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » (٥) ؟ وتأتي آية الرحمة التي تملأ قلب المؤمن رضاء وسلواناً أمام عفو الله ، فيقول الحق سبحانه . « يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفاً » (٦) . . .

هذا الإنسان الضعيف الذي أراد له الله التخفيف ، يتحدى خالقه ، زاعماً المعرفة في كل شيء . وكأنه أحاط بكل أسرار

- | | |
|--------------------|-------------------|
| (١) الجاثية : ٢٤ | (٢) الكهف : ٥١ . |
| (٣) الطور : ٣٥ . | (٤) فاطر : ٤٠ . |
| (٥) المؤمنون : ١١٥ | (٦) النساء : ٢٨ . |

الكون ، ووصل به غلوه إلى أن يتنكر لمبدع الكون. وما كلف نفسه مشقة النظر وإعادة النظر بعمق فيما صنعه الخالق الذي حثه على ذلك « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين (أيها المتحدي الخاسي) ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » (١) . . .

يختسئ المنكر خلف بعض المسميات التي افتعلتها إفتراء حينما تعجز به قدرته بدلاً من أن يتواضع ويبحث ويتدبر وينحني إجلالاً لآيات الله . يقول الحق سبحانه « وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون » (٢) .

لم نندهش حينما وجدنا جهابذة العلم وعالمته الزهاء يلتفتون مع أبسط البسطاء أمام غموض الكون (مجرد مثال هربوت سنسر المعروف بنظريته في التطور) ويعترفون مؤمنين أم مكهرين بجلاله . بينما عصابات المتطفلين على كل معرفة من الانتهازين والآكلين على كل الموائد . والعارين عن كل أصالة أو عمق ، وليس لهم من رأس مال إلا الظن والظنون والعبادة الوثنية للمسميات ، تشدق بالمغالطات ورفع رايات الزيف والبهتان تحت ستار العلمية الملفقة . لا القادرة الرصينة كما يقول الحق سبحانه « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن » (٣) وفي آية أخرى

(٢) الذاريات : ٢٠ ، ٢١

(١) الملك : ٤٠ ، ٤١

(٣) الأنعام : ١٤٨

« ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله » (١) . . .

إنهم يسخرون من تعدد الخطاب في القرآن الذي يتحدث عن الأنعام والإبل والبراغيث والتفصيل محاوراً لأول من عاصره من البسطاء من خلال حياتهم الملموسة ، كما يتحدث عن الإشكاليات الكونية الكبرى وبقمة التحدي لعتول المعاصرين في القرن العشرين . وفي كل القرون التالية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . . ، كل هذا في خطاب متجانس يجمع بين روعة البساطة . وقدره الإقناع ، إننا نقول لهؤلاء الساخرين : تعدد الخطاب في القرآن هو ضرب من أسمى ضروب إعجازه . فقد استطاع أن يخاطب كل عقل قدر طاقته مصداقاً للحديث : نحن معشر الأنبياء أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم .

إنهم يتنكرون للوحي والنبوة -- وقد أشرنا إلى ذلك وسلفاً ودحضنا إنكارهم -- كما ينكرون الغيبيات : البعث والحشر ويوم القيامة والملائكة والجن ، والشياطين ، وخفايا الكون وأسراره . . . وكأنهم قطعوا هذا الكون طولاً وعرضاً ، وتغلبوا على الموت وأمدوا في أعمارهم بلا حدر . بينما في الحقيقة لو أن أحدهم ترحلقت قدماه على الأرض ، لا في الكون ، لفقد توازنه . وما فكروا أبداً في حافظ توازن الكون بأرضه ونجومه وكواكبه .

(١) يوسف : ٤٠ .

وأفلاكه ومجراته التي تغمر بملايينها السموات . . . لئلا يفكروا في خلق السموات والأرض . بل ولو في خلق أنفسهم لتنهكوا في أحكامهم العنوية الاعتبارية . ومواقفهم العشوائية ، وخففوا على أنفسهم . فيخفف الله عليهم فلن يقدروه حق قدره . يقول الحق سبحانه « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » (١) .

وروى عن ابن عباس « أن قوماً تفكروا في الله عز وجل فقال النبي (عليه السلام) : « تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره . . . »



والخلاصة : إن من يتسرع في حكمه المنكر لجلال الله سبحانه وتعالى ، ولأنبيائه ورسله وما جاءوا به . معتمداً في ذلك على معرفة نسبية لديه . ما هو إلا جاهل جهول . أو معاند مكابر مستكبر . وما التجدي الإعجازي للإسلام ماضياً وحاضراً ومستقبلاً وباسم المنهجية إلا رؤية موضوعية يدافع عنها المؤمن المسلم بوعي وورصانة . دون تهيب أو وجل وكله ثقة فيما لديه . . . فبعد مواكب الدفاع عن الإسلام وصلاحيته لإنقاذ البشرية باسم النص والنقل والشرع أولاً ، ثم باسم الدراية والعقل ومحاورة الفلسفة والعلم بعد ذلك . ثم حالياً باسم المنهجية . ماذا تبقى للمعاندين والمكابرين والمستكبرين ؟ ؟ .

إن كانوا معاندين جهلاء، عليهم بمزيد من العلم ، وإن كانوا مكابرين تطرفاً ، فعليهم بالتراجع إلى الحق والارتداد إلى مواقع الصواب، وليواجهونا بالحوار الهادئ البعيد عن الانفعال والتشنج والاحتماء بالمسميات المفتعلة واللفظانية التافهة ، وسوف تتحول مكابرتهم ، بإذن الله ، إلى عرفان بالحق واعتراف به . وفي ذلك منجاة لعقولهم الضالة المستلبة بالدنيا ، ونجاة لهم من همزم الآخرة . . . وإن كانوا مستكبرين ترفعاً عليهم أن ينظروا في الجبال الصماء المحيطة بهم، إنها أكثر رسوخاً ودواماً منها، أو يتأملوا ذباب الأرض وأبسط مخلوقات الله ، فيفرغوا إستكبارهم وتخليهم في صنعنا . أو أمام عجزهم ينحنوا لإجلال الله، أو بدلا من تبجحهم بموت الإله -- كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً -- فليعيدوا الحياة إلى أجسادهم بعد موتها ليريحوا أو يستريحوا ؟ .

إننا بعرضنا المتواضع هذا كلمات عن منهجية الحوار والتحدى الإعجازي للإسلام في هذا العصر إنما نسير في طريق خالدة ثابتة، خطتها الرسل والأنبياء بنور السماء، وسار فيها التابعون أهل السنة من السلف الصالح معبدن لها ليعبرها من بعدهم جيل الخلف . من حملة مشاعل الشرع والحكمة ، الملتزمين بنص القرآن والحديث الثابت الصحيح متناً وسنداً . القائلين « سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما شاء » المركزين على تفسير القرآن بالقرآن ثم بالسنة

«لصاحب الرسالة وصاحب البيان» ثم المأثور من لدن الصحابة ، مع قبول التأويل النسبي مع عدم المغالاة فيه ، والتصدي لكل من خرج على طريق الحق ، ومحاورة دعاة التطرف في التأويل ممن غالوا في صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح بدلالة ظاهرة إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك. أو دعاة الاجتهاد تحت راية التمثيل والتشبيه والمجاز كجانب من المعزلة والجهمية أو الجبرية ومن ذهب مذهبهم . . . كل هذا في إطار متكامل لهذا الخلف الصالح تحت شعار التوفيق بين النقل والعقل كما رفعه : الأشاعرة والماتريدية وغيرهم ومن نحنأ نحوهم ، من الداعين إلى التفتح على الإسلام والارتقاء إلى معطياته الرائدة وكشف كنوزه الخالدة . . .



وها نحن اليوم وفي نهاية عرضنا عن « منهجية الحوار المتحدى » نذكر بهذه المواجهات البناءة التي عرّفت بالمسار الإعجازي للإسلام عبر العصور وحافظت عليه ، وفاء منا لرجال « صدقوا ما عاهدوا الله عليه » (١) مجددين لهم العهد من أن طريق السلف الصالح والخلف الواعي المدقق ، وحتى دعاة الفلسفة والعقلانية والمنطق والعلم ممن قالوا : « سبحان من ينزه عن الفحشاء » والتزموا براه الله . . . هي الطريق التي عليها سائرون ، بعد أن منَّ الله بها علينا « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » (٢).

(٢) آل عمران : ١٦٤ .

(١) الأحزاب : ٢٣ .

واقفين بوعى . وحكمة . وتبصر . وقفة رجل واحد أمام
معاند أو مكابر أو مستكبر . كما أكدنا ذلك فى المجموعة الأولى
من تأملاتنا الإسلامية وكررناه فى المجموعة الثانية من نظراتنا
الإسلامية، ومن جديد نردها الآن فى ختام هذه المجموعة الثالثة
عن منهجية التحدى . وبكل اعزاز وثقة . وبصوت خاشع لله
وفى كل صلاة وفى كل حج . وبعد مسيرة قرون من الإعجاز
ه لبيك اللهم لبيك . لا شريك لك لبيك.. خمسة عشر قرناً والإسلام
ها هو ذا يتحدى يا خاتم الأنبياء.

